الفصل العشرون

العباسيون

من عهد القائم إلى المستظهر

٤٥٥ — ٥٠٣هـ — ١٠٦٣ — ١١١٠ م

بدأ الحروب الصليبية

الخليفة القائم بأمر الله — طغرلبك — الحروب مع الدولة البيزنطية وفاة طوغرل — تولية ألب أرسلان — غزو جيوش الفرنج — موقعة ملازكرد — انهزام الجيوش الصليبية — أسر رومانوس — معاهدة الصلح — مقتل رومانوس — وفاة ألب أرسلان — تولية الملك صالح — وفاة القائم — مبايعة المقتدى بأمر الله — عهد الملكشاه الزاهر — الحشاشون أو الباطنيون — حسن الصباح — اغتيال نظام الملك — وفاة الملكشاه — الخلاف بين أولاده — وفاة الخليفة المقتدى — تولية المستظهر بالله — بدء الحروب الصليبية — حصار أنطاكية — الاستيلاء عليها — مذبحة المسلمين — تدمير معرة النعمان — مذبحة بيت المقدس — نهب طرابلس

٤٥٥–٥٠٣هـ — ١٠٦٣ — ١١١٠م

أضحى السلاجقة بزعامة « طوغرل » الشعب المسيطر على آسيا ؛ ومن المعلوم أن ذلك الشعب ينتمى إلى سلالة تركية ، ويعرف باسم زعيمه الذى هاجر به إلى ما وراء السند ومن ثم إلى خراسان . ومع أن الأتراك والمغول ينتسبان إلى أصل واحد إلا أنهما يختلفان أحدهما عن الآخر اختلافا بينا ؛ إذ بينما كان المغول يسكنون أقصى حدود آسيا الشرقية فى حالة شبه بربرية كانت القبائل الغربية الضاربة فى المغرب تتأثر أيما تأثير باحتكاكها بمدنية العرب . وكان السلاجقة الذين يعتبرون أكثر هؤلاء القبائل تمدنا قد اعتنقوا الدين الإسلامى بحماسة

و إخلاص شديدين وأصبحوا حماته المغاوير . و بينما كان العرب منصرفين إلى تعضيد الفنون والآداب التى تدعو إليها حياة السلم و يتعهدونها برعايتهم ، كان السلاجقة يسعون إلى نشر الإسلام و بسط نفوذه ؛ وقد بلغوا ذروة مجدهم فى النصف الأخير من القرن الحادى عشر على أثر خضوعهم لسلطان أعلى واحد توحدت بفضله كلمة رؤساء الإقطاعيات وأعلنوا له خضوعهم و إخلاصهم .

وقد انتهز الروم فرصة ضعف الخلافة ووهنها وحاولوا نشر سلطانهم على آسيا فتطورت الغزوات التى كانوا يشنونها فى العصور السابقة بقيادة بعض الملوك الأشداء ، واستحالت الآن إلى حملات عسكرية لاحتلال بلاد المسلمين ، وظلوا يوغلون فى التقدم حتى توسعت دولتهم فى القرن العاشر الميلادى وأصبحت تمتد إلى مدينة أنطاكية جنوبا وحدود أرمينية شرقا .

وفاة طغرلبك وتولية ألب أرسلان

وفى سنة ١٠٦٠ م هب « طغرلبك » معلناً حربا شعواء على الدولة البيزنطية واكتسح كبيدوكيا وأفروجيا ، غير أن احتلال هاتين المنطقتين احتلالا دائماً لم يتم إلا بفضل خلفه « ألب أرسلان » ، الذى تولى رئاسة السلجوقيين بعد موت عمه الذى لم يعقب ولداً ذكراً ، كما أنعم عليه الخليفة بلقب السلطان ؛ و يصفه ابن الأثير : « بأنه بعيد الهمة ثاقب العزم ميمون النقيبة إلى بره بالرعية و إرادته خيرهم » ، وكان فوق ذلك فارسا شجاعا . و بعد انتصاره على جيش الروم واستيلائه نهائياً على « الكُرج » « وأرمينية » عاد إلى « خيوة » فى أذربيجان ، ولكنه لم يلبث أن أتته الأخبار بأن دايوكنيس رومانوس [1] — الذى اعتلى العرش بفضل الإمبراطورة أديسيا بعد أن كاد ينفذ فيه حكم الإعدام — قد توغل فى آسيا على رأس جيش كبير يزيد على ٢٠٠ ألف جندى لاحتلال بغداد ، عاقداً النية على الاستيلاء على آسيا الغربية برمتها وضمها إلى الدولة البيزنطية ، وكانت هذه الحملة أعظم الحملات التى زحفت حتى الآن من القسطنطينية للغزو والتخريب .

٤٥٥ — ١٠٦٣

(١) ويسميه العرب أرمانوس .

وتقول لنا الرواية إنه كلما تقدم الروم أمعن المسلمون فى الفرار حتى وصلوا إلى « ملازكرد » أحد الحصون المهمة الواقعة فى منتصف الطريق بين مدينتى أرضروم ووان ؛ فلم يلبث السلطان أن أسرع إلى نجدتهم على رأس قوة كبيرة ، وزحف بها على الروم ، فدارت معركة رائعة بين الفريقين انتصر فيها المسلمون بالرغم من قلة عددهم ، وأسروا ملك الروم وقواده ، وحملوه إلى معسكر السلطان ، فعاملهم معاملة مرضية ؛ و بعد مفاوضات طويلة دارت بينه و بين أرمانوس ، تم الصلح بينهما على أن يزوج الثانى بناته من أولاد الأول ، و يفتدى نفسه وجميع الأسرى بمليون دينار ، و يدفع جزية سنوية قدرها ٣٦٠ ألف قطعة ذهبية . ولما فك سراحهم رجعوا أدراجهم تحف بهم قوة من المسلمين إلى الحدود . غير أن أرمانوس علم فى طريقه إلى القسطنطينية أن شعبه العديم الوفاء قد خلعه فاستنجد بالسلطان ؛ ولكن الروم كانوا قد قبضوا عليه قبل أن تصله النجدات وقتلوه بعد أن سملوا عينيه .

ملازكرد

١٠٦٣ — ١١١٠ م

وعلى أثر الانتصارات الباهرة التى أحرزها السلطان فى موقعة « ملازكرد » وهب ابن عمه سليمان بن قطلمش ولاية آسيا الصغرى ، وكان جنديا شجاعا حكيما متدبراً فى أمره ، فوسع ملكه و بسط سلطانه إلى هلسبونت « بحر مرمره » شمالا وسواحل البحر الأبيض المتوسط غرباً ، وفرض على ملوك الروم الجزية يدفعونها عن يد وهم صاغرون ، ثم اختار مدينة نيقية إحدى مدن الأناضول لتكون عاصمة ملكه ، ولما استولى عليها الصليبيون انتقل إلى قونية ، وظلت آسيا الصغرى فى قبضة أحفاده حتى تغلب عليهم التتر ؛ و يعرف هذا الفرع السلجوقى بسلاجقة الروم[1] ، وقد تركوا آثاراً جمة تنهض دليلا على مبلغ مدنيتهم وقوة سلطانهم .

٤٦٥ هـ ١٠٧٢ م

توفى ألب أرسلان متأثراً بجرح الخنجر الذى طعنه به أحد الثائرين ، وكانت

وفاة ألب أرسلان

(١) كان علاء الدين الملك الرابع عشر من ملوك تلك الأسرة صديق وتلميذ الشاعر الصوفى المشهور مولانا جلال الدين الرومى .

أيامه أيام تقدم وازدهار ، وكان وزيره « الخوجه حسن » الملقب بنظام الملك الذى أسند إليه مهمة تدبير الأمور المدنية بأسرها . وقد خلف « ألب أرسلان » ابنه ملكشاه ولقب بجلال الدولة . وتوفى الخليفة « القائم » بعد ذلك بثلاث سنوات فخلفه حفيده أبو القاسم عبد الله الملقب « بالمقتدى بأمر الله » ، ولم يكن قد ناهز بعد التاسعة عشرة ، وكان من خيرة بنى العباس ، قوى النفس عظيم الهمة ، فأمر بإقصاء المغنيات والمفسدات ، وأصلح كثيراً من الأخلاق العامة ، وعمل على رفع مستواها بالرغم من انتشار الفساد ؛ بيد أن أصحاب المذهب الحنبلى المتعصبين خلقوا له عدة متاعب ، فكثيراً ما كان ينجم عن الشجار الذى كان يقع بينهم وبين الأشعرية خسائر فادحة فى المال والأرواح ، ولكن اهتمام العالم الإسلامى فى ذلك الحين لم يكن متجهاً إلى الخليفة ولا إلى بلاطه ، بل كان منصرفا إلى السلطان الأكبر حاكم آسيا .

تولية ملكشاه ٤٦٦ هـ ١٠٧٣ م

كانت أوائل أيام « ملكشاه » مضطربة بسبب الفتن الداخلية التى كانت تنشب من حين لآخر ، وقد خرج أخو السلطان نفسه على أخيه ذات مرة ، وليس أدل على شرف نفس « ملكشاه » ونبل عاطفته من ذلك الحادث الذى جرى له فى طوس ، وهو أنه بعد أن صلى فى مشهد الإمام على الرضا قال لوزيره : إنه ابتهل إلى الله فى صلاته أن ينصر أخاه عليه إن كان هو أحق منه بحكم المسلمين ؛ وعلى الجملة كان « ملكشاه » سلطاناً عادلا ذا فضل وإنصاف ، شجاعا مقداما صائب الرأى والتدبير ، لم تشب أخلاقه أية شائبة قط ، وظل محتفظاً بخدمات وزيره الخوجه حسن نظام الملك الذى قلده جميع الأمور ولقبه أتابك . ولعل « نظام الملك » يعد أقدر وزراء الإسلام طرا بعد يحيى البرمكى ، وليس أدل على عبقريته الفذة وكفايته من الأعمال الجسام التى قام بها فى إدارة شؤون الدولة ، فانتشر الأمن فى كافة أنحاء البلاد الممتدة من حدود الصين إلى البحر الأبيض المتوسط غربا ، ومن كورجيا شمالا إلى بلاد اليمن جنوبا ، كما قام

عهد ملكشاه

باثنتى عشرة جولة فى طول البلاد وعرضها ليتعرف أحوال رعيته ، ويقف على احتياجاتها بنفسه ؛ وأسس منازل ومخافر على طول الطرق التجارية وطرق الحجيج ، شأنه فى ذلك شأن الرشيد والمأمون ؛ وكان بجانب ذلك مولعاً بالقنص والصيد ، ولكنه لم ينس قط فى أوقات لهوه أن يحسن إلى الفقراء والفلاحين الذين كان يصطاد فى مزارعهم وحقولهم أو يمر من ضياعهم . وكان عهد ملكشاه يقاس فى عظمته وفخامته بأزهر عهود الدولة الرومانية أو العربية حيث ازدهرت التجارة والصناعة ، وزهت الآداب والفنون ، وتقدمت اللغة الفارسية تقدما لم يسبق له مثيل ، وجملت المدن بالكليات[1] والجوامع ، وأنشئت المستشفيات والقصور وشقت الطرق ، وحفرت الترع فى كافة الأمصار والبلدان ، تسهيلا للتجارة والزراعة .

إصلاح التقويم

كذلك كان للتقويم الذى أمر بإصلاحه فائدة عظمى للعالم أجمع ، إذ تشكلت لجنة من العلماء برئاسة الفلكى المشهور « عمر الخيام » للقيام بهذا العمل الجميد . ويقال إنهم توصلوا إلى إصلاح الأخطاء بطريقة احتساب الوقت . ويقول «غيبون» بهذا الصدد : إن تقويمهم فاق تقويم جوليان وقارب التقويم « الغريغورى » ، كما قرروا تعيين رأس السنة فى أول نقطة من دخول الشمس برج الحمل بدلا من توسط مرورها ببرج الحوت ، وقد عرفت بالسنة الجلالية ، نسبة للسلطان جلال الدين .

٤٥٥ — ١٠٦٣ م

وفى ذلك الحين كان سليمان حاكم الروم السلجوقى قد بسط سلطانه على حدود « ريوط » ، واستولى على عدة جزر ، واعترف بسيادته كل من « نقفور » الذى اعتلى عرش الدولة البيزنطية بعد خلع ابن قسطنطين و « الكسيوس كوستيوس » ، وطفقا يدفعان له الجزية . وفى سنة ٤٦٧ هـ طرد « سليمانشاه » الروم من أنطاكية وأعاد احتلالها باسم السلطان ، غير أنهم ثاروا بعد سبع سنوات

(١) أهمها المدرسة النظامية والمدرسة الحنفية فى بغداد (المعرب)

للهزيمة التى لحقت بهم وغزوا جزيرة صقليه . وفى عام ١٠٦١ م غزا النورمنديون تلك الجزيرة ، وقد شجعتهم الفتن التى كانت تعصف ريحها بالدولة الإسلامية على التغلغل ، فواصلوا حروبهم حتى عام ١٠٩١ م حيث استولى عليها نهائيا كونت نورمانى اسمه « روجر » بعد معارك شديدة استمرت مدة غير يسيرة .

تأليف جماعة الحشاشين (الباطنيين)

وفى أواخر أيام « ملكشاه » ظهرت فئة نهلستية تسمى بالحشاشين(١-٢) فى وهاد « مازندران » التى سبق أن اعتصم بها بابك الخرمى وأتباعه ؛ ومؤسس هذه الجمعية الدموية — التى أسست على غرارها فيما بعد الجمعيات السرية فى آسيا وأوربا — هو الحسن بن الصباح أحد أقران نظام الملك فى المدرسة وطلب العلم ؛ ويقال إنه لما قعدت به الهمة عن الوصول إلى غايته فى مراتب الدولة السلجوقية آلى على نفسه أن يعمل على تقويض دعائم السلطة الشرعية بالسم والحديد ، فالتحق بالخليفة الفاطمى فى مصر ، وأصبح من أتباعه المقربين ، وظل به حتى عينه رسولا إلى المشرق ، وفوض إليه نشر الدعوة الإسماعيلية ، وكان يتألف هذا المذهب إلى ذلك الحين من :

حسن الصباح

الاسماعيلية ١٠٦٣ — ١١١٠ م

(١) رؤساء أو دعاة يتدرجون فى مراتب العقيدة السرية .

(٢) أتباع أو رفقاء يلقنون تدريجيا مبادئها السرية ، ويتألف منهم أغلبيتها الساحقة .

رأى الحسن أنه لايستطيع تحقيق مراميه ، وبلوغ أهدافه بالنشاط والاطمئنان المطلوبين إلا بإنشاء مرتبة ثالثة يكل إلى أفرادها أمر تنفيذ أغراض الجمعية ، فيغدون آداة صماء متهوسين فى أيدى رؤسائهم يوجهونهم كيف شاءوا دون أن يسألوا سؤالا أو يحسبوا حسابا لعواقب أعمالهم ، ويدعون « بالفدائيين » وكانوا يرتكبون أعمال الفتك والاغتيال وفقاً لأوامر الرئيس الأعلى الذى كان

شيخ الجبل

(١) يعرفون بالباطنيين . (المعرب)

(٢) إن كلمة الحشاشين إما مشتقة من « الحسنى » أو « الحشاشين » .

يسمى « بسيدنا » ، ويعرف عند العامة باسم شيخ الجبل ؛ وكان معظم أتباعه من هؤلاء الفدائيين[١] .

مراتب الجمعية

وكان يليهم مباشرة فى المرتبة فئة داعى الدعاة ، وهم ثلاثة يرأسون فروع الجمعية فى الجبل وكوهستان والشام ؛ ثم يأتى بعدهم فى المرتبة منصب الداعى الذى كان من شأنه بث الدعوة وقبول المدعوين ، وهو لقب يمنح لمن سبق أن تدرج فى مراتب الجمعية السرية ، ويليه منصب الرفيق ثم الفدائى ؛ أما مرتبة اللاصق فكانت المرحلة الأولى للمدعوين الذين كان يتطلب منهم مراعاة أدق المراسيم الدينية الإسلامية ؛ أما الأتباع المخلصون فكانوا ملزمين بالطاعة العمياء . وكان الداعى يخدم الجمعية بفكره ، ويرشد الفدائيين إلى ما يجب عليهم عمله تنفيذاً لأوامر « شيخ الجبل » ، وقد أطلق المسلمون على هؤلاء النهلستيين اسم الملاحدة .

٤٥٥ — ٥٠٣ هـ

وفى سنة ٨٤٣ م استولى الحسن بن الصباح على قلعة آلاموت « عش النسر » المنيعة فى جبال مازندران ، ومنها شرع يدير حركته الهدامة .

ولأجل القضاء على هذه الدعوة الإلحادية والجمعية الهدامة سير « ملكشاه » عليهم حملتين ، ولكن المنية عاجلته قبل استئصال شأفتهم . وفى سنة ١٠٩١ اغتال أحد أتباع الحسن بن الصباح « نظام الملك » الذى يصفه ابن الأثير[٢] : « بأنه كان محبوبا عند الخاصة والعامة مشهوراً بحسن تدبيره وجوده » . وكان قد أعقب ثلاثة أولاد هم : مؤيد الملك ، وفخر الملك ، وعز الملك ، الذين استوزرهم أخلاف الملكشاه . وقد عاد السلطان إلى بغداد بعد موت وزيره العظيم . وفى ذلك الحين كاد يتم زواج ملكشاه من ابنة كومينوس[٣] بيد أن وفاة الأول حال دون تحقيق هذه الأمنية التى لو تمت لأفادت الشرق والغرب معاً بتوطيد

اغتيال نظام الملك

وفاة الملكشاه ١٥ شوال ٤٨٥ هـ ١٨ تشرين الثانى ١٠٩٢ م

(١) يوجد ثمة تشابه غريب بين هذه الجمعية السرية للاغتيال وشتى الجمعيات التى نشأت فى أوربا فيما بعد .

(٢) تاريخ أتابكة الموصل .

(٣) يعتقد غيبون اعتقاداً جازماً أنها « آنى كومينا » نفسها .

العلاقات وتوثيق الصلات بينهما . وقد توفى ملكشاه وهو ابن ٣٩ سنة بعد أن حكم البلاد ٢١ سنة ، وبموته اضمحلت عظمة الدولة السلجوقية وتفككت أواصرها . وكانت أرملة ملكشاه « تركان خاتون الجلالية » قد طلبت إلى الخليفة أن يقر ابنها محموداً الذى كان لا يزال طفلا فى مكان أبيه ، فلبى طلبها ولقبه « بناصر الدنيا والدين » ، ولكن الطفل الصغير لم يتمتع بالملك طويلا ، إذ استولى على السلطة أخوه الأكبر « بركياروق »[1] وتلقب « بركن الدولة » . غير أنه لم يمض سوى قليل حتى قام أخوه الثالث مطالبا بعرش السلطنة ، فنشبت فتن رائعة بين الأخوين بركياروق ومحمود حول الاستيلاء على العراق وخراسان ، ففتت هذه الحروب فى عضد السلاجقة ، وأضعفت قوتهم ، وهيأت الفرصة للحسن بن الصباح لتنفيذ خططه . وفى هذه التربة الدموية الخصيبة التى كانت تعصف بها ريح البغضاء والتحاسد نبتت جذور الاغتيال ، وازدهرت أفنان القتل بالسم والسيف ، وهكذا استولى الحشاشون « الباطنيون » تدريجياً على عدة قلاع منيعة فى البقاع الجبلية فى شمالى فارس والعراق والشام ، وقضوا بالخناجر على حياة أعظم رجال المسلمين شأنا .

١٠٦٣ — ١١١٠ م

تولية بركياروق

وفى عام ٤٨٧ توفى المقتدى وخلفه ابنه أبو العباس أحمد « المستظهر بالله » وعمره ست عشرة سنة ؛ وكان كما يصفه ابن الأثير : « لين الجانب كريم الأخلاق يحب الاصطناع ، ويفعل الخير ، ويسارع إلى أعمال البر والمثوبات ، مشكور المساعى » . ولو أنه جاء فى عصر أسعد حظاً لترك على الأرجح أثراً بالغاً فى التاريخ ؛ بيد أن المصادر التى كانت لديه لم تكن لتمكنه من القيام بدور خطير ، إذ كانت تعصف فى تلك الأثناء فى آسيا ريح التعصب الوحشى الذى يسمى فى التاريخ المسيحى « بالحروب المقدسة » . ولما كنا نلاحظ فى الكتب التاريخية التى دبجها يراع المؤلفين الأوربيين أنهم يحملون نزعة مغالبة ، وأنهم يرون فى الفارس الذى

أبو العباس أحمد المستظهر بالله ١٥ محرم ٤٨٧هـ تشرين الثانى ١٠٩٤ م

الصليبيون ٤٩١هـ ١٠٩٧م

(١) ويلفظ أيضاً « بيك ياروق » أى البيك اللامع .

كان ينضوى تحت لواء تلك الحملات بطلا صنديداً ، ومثلا أعلى للشهامة والفخار رأينا من اللازم علينا إحقاقا للحق أن نمزق ذلك النقاب البراق الذى أسدلوه على هذه الصورة المشوهة ، لنبين فى الصفحات القليلة من هذا الكتاب هول تلك الحروب ، ووحشية طباع الذين اشتركوا فيها ، والدمار الذى جلبوه على آسيا الغربية . ومما لاشك فيه أن الحروب الصليبية — كما يصفها كاتب مبدع — « كانت أشد الحروب خبالا ، إذ تدفقت جموع المسيحيين على البلاد الإسلامية فى حملات متوالية قرابة ثلاثة قرون حتى يئست النفوس ، ووهنت العزائم ، وتضعضعت الهمم من جراء الفشل المريع والخسائر المتوالية ؛ ففقدت أوربا زهرة شبابها ، ونضب فيها معين المال حتى غدا الإفلاس المالى يقرع أبوابها ، والمجاعات تهددها ، والخراب العاجل يقوض أركانها ، فهلكت الملايين فى الوقائع الحربية ، وفتكت الأوباء والمجاعات برجال الصليب وحماة المسيحية ، الذين ارتكبوا أروع الجرائم التى يعجز عن وصفها الخيال » . ٤٠٠-٥٠٠م

حالة المسيحيين فى البلاد الإسلامية

كان المسيحيون منذ تأسيس الدولة الإسلامية مغمورين بفيض من الكرم والتسامح ، فكانوا يؤدون مراسيمهم الدينية بالحرية التامة ، ويتمتعون بحقوقهم المدنية كاملة غير منقوصة ، ويتنقلون فى أنحاء الإمبراطورية حسبما يشاءون وأينما يبتغون ، ويتكاتبون مع أمراء الدول الأجنبية دون لوم أو تثريب ، كما كان لهم الحق فى تملك الضياع والأرضين ؛ وعلى الجملة كانوا يتمتعون بكل ما يتمتع به المسلمون . أما مناصب الدولة فكانت مفتوحة أبوابها أمامهم دون تفرقة بينهم وبين المسلمين باستثناء أيام الحكام المتعصبين ، وكانت الكنائس والأديرة المسيحية قائمة فى كل مكان ، وكان الحجاج المسيحيون يؤمون « القدس » من كل حدب وصوب بسلام آمنين ؛ ولم يتيسر لهم ذلك إلا بفضل احتلال العرب لتلك البلاد ، إذ كان هدف العرب توطيد الأمن ومنع نشوب المشاجرة بين مختلف الطوائف المسيحية المتباغضة ، التى لو تركت وشأنها لفتك بعضها ببعض .

١٠٦٣ — ١١١٠ م

وفى بيت المقدس الذى يحترمه معتنقو الديانتين الإسلامية والمسيحية خصص حى كامل لسكنى البطريق والكهنة . كذلك لما انتقلت فلسطين والشام إلى أيدى الفاطميين عام ٩٦٩ م استفاد المسيحيون فائدة تذكر ، وذلك أن ملوك مصر شملوا الطائفة المسيحية بعطفهم ورعايتهم وشجعوا تجارهم ، غير أن هذا التسامح الرائع لم يكن ليخفف من غلواء هؤلاء المتهوسين الذين كانوا ينظرون إلى بقاء المسلمين فى « القدس » بعين البغض والاستنكار .

كان الحجاج المسيحيون يزورون الأرض المقدسة ، ويلاقون فيها من العرب ضروب الرعاية والكرم ، كما كانوا يتمتعون بالسخاء العربى المشهور ، ولكنهم كانوا بالرغم من كل ذلك يعودون إلى بلادهم وقد امتلأت قلوبهم حسداً وحقداً . فما كاد ينتهى القرن العاشر حتى اعتقد المسيحيون اعتقاداً جازما أن ساعة الخلاص قد أزفت ، وأن العصر الألفى السعيد قد حل أو كاد ؛ وبهذا الاعتقاد طفقت جموع المهاجرين تتدفق من العالم اللاتينى على الأرض المقدسة ، وفى القرن الحادى عشر ازداد عددهم زيادة هائلة .

وفى ذلك الحين كان حكم فلسطين قد انتقل إلى أسرة «أورتك» التركمانية التى لم تكن لتدين بالولاء للسلطان السلجوقى ولا لنائبه فى الشام ؛ وكان هؤلاء الحكام يجهلون الحماس الذى كان يتأجج فى قلوب الحجاج الأجانب ، فلم يعاملوهم بالتسامح الذى كان يعاملهم به الحكام الأولون . لذلك كان هؤلاء الحجاج المتعصبون إذا ما عادوا إلى أوطانهم شوهوا الحقيقة وشنعوا بالمسلمين ، فيثيرون بذلك حفيظة إخوانهم وأبناء جنسهم ، حتى عقد البابا « أربان » الثانى أخيراً

مجلسا بلاسنتيا وكليرمنت فى آذار وتشرين الثانى ١٠٩٥

مجلساً فى بلاسنتيا فى آذار سنة ١٠٩٥ ، ومجلساً آخر فى كليرمنت فى تشرين الثانى ، وخطب معلناً ضرورة إنقاذ ضريح المسيح من أيدى الكفار ! كما أعلن غفران ذنوب الخاطئين الذين يلتحقون بهذا الجهاد الدينى ، ووعد الذين يموتون فى سبيل هذه الحرب جنات الخلد . غير أن الباعث الحقيقى لتلك الحروب

الصليبية الدامية كان فى الواقع هو الهوس الدينى الممزوج بأغراض أخرى كالميل
٤٥٥-٥٠٣هـ إلى تأسيس ممالك جديدة ، والحصول على ثروات طائلة ، والرغبة الملحة التى سرت فى أعماق النفوس الوضيعة فى احتساء الأنبذة الشرقية ، والتمتع بفتنة الكرجيات ؛ وهكذا تضافرت عوامل شتى من البخل والطموح والشهوة مع الروح الدينية التى كانت تجيش بها صدور المتعصبين على خلق هاته الحروب .

ويقول « هالام Halam » إنهم تذرعوا بكل وسيلة لنشر هذا الجنون الوبائى وكان الجندى فى خلال الحملات الصليبية معفيا من القانون الخاص باستيفاء الديون والضرائب ، كذلك كانت الكنيسة تحميه من العقاب وتضمن له النعيم الأبدى ، « ولم يكن ليشك قط أى إنسان فى أن الذى كان يلاقى حتفه فى ميدان القتال كان يدخل فى حظيرة الشهداء والأبطال » .

حملة بطرس الناسك سنة ١٠٩٦م

وقد لاقت أول عصابة وعلى رأسها « وولتر المفلس » حتفها على أيدى البلغار المسيحيين ، فقاد بطرس الناسك الحملة الثانية وكان عددها ٤٠ ألف من رجال ونساء وأطفال من مختلف الأجناس واللغات ؛ ولما وصلوا إلى « مالفيل » ثأروا لإخوانهم أفراد الحملة الأولى ، فانقضوا على المدينة وذبحوا سبعة آلاف من سكانها ، واستسلموا إلى شتى أنواع الموبقات والمفاسد ، فأصبحت المجر و بلغاريا أرضاً يبابا أمام جموع بطرس الناسك ؛ ولما وصلوا إلى القسطنطينية أراد الإمبراطور الكسيوس أن يتخلص منهم ، فنقلهم عبر البوسفور دون أن يسمح لأحد منهم بالإقامة فى المدينة ولو إلى حين . وهنالك فى آسيا شرعوا يرتكبون أشنع الفظائع التى تفوق حد الوصف ؛ ويقول المسيو « ميشو Michaud » : « إن الصليبيين ارتكبوا جرائم وفظائع جعلت الطبيعة تهتز خوفا وفزعا من هولها ؛ كذلك كانوا يقتلون الأطفال فى أحضان أمهاتهم و ينثرون أشلاءهم فى الهواء ، كما نقلوا فظائعهم معهم حتى أسوار نيس ، غير أن السلطان زحف عليهم بخمسة عشر ألف مقاتل ، فهزمهم هزيمة رائعة . وعلى أثر هذه الموقعة اعتنق

ريجينالد وجماعة من أصحابه الديانة الإسلامية ، أما البقية الباقية فقد أبيدت على بكرة أبيها » .

١٠٦٣ — ١١١٠م

وكانت الموجة الثالثة تتألف من « أحط الطبقات وأجهلها [١] » بقيادة « هودسكال » أحد الرهبان الألمان . وكان هؤلاء يمزجون فكرة التضحية بالتحرر من قيود الأخلاق ، والتردى فى الدعارة ومعاقرة الخمر . ويقول المسيو ميشو : « إنهم انهمكوا فى الدعارة ، ونسوا القسطنطينية و بيت المقدس ، وراحوا يمثلون مناظر صاخبة من هتك الأعراض إلى النهب والقتل ، وكانت جميع هذه الفظائع تترك آثاراً فاضحة تدل على فعالهم أينما رحلوا ؛ فثارت أهل المجر فى وجههم ، وأصبحت سهول البلغار مليئة بعظام الصليبيين ، ولم ينج من أتباع « هودسكال » إلا نفر قليل » . أما العاصفة الرابعة فقد هبت من إنجلترا وفرنسا وفلاندرس واللورين ، ويسميهم المستر ميلس « عصابة أخرى من المتوحشين البائسين » ، فانقضوا على اليهود إنقضاض الصواعق — إذ لم يكن ثمة أتراك يحمونهم من مضطهديهم — وذبحوا الألوف منهم فى كولونيا ، والمدن الأخرى على شواطئ الرين وموسيل ، ويقال إنهم قتلوا سبعة آلاف دفعة واحدة فى مدينة ميانس ؛ ثم واصلوا زحفهم إلى الجنوب يعيثون فساداً فى طريقهم [٢] « بيد أن الجيش المجرى قاومهم فى مدينة ميسبرغ ، وأعمل السيف فى رقابهم » .

سنة ١٠٩٧م

وفى السنة التالية ألف أمراء أوروبا الإقطاعيون حملة منظمة ، وساروا على رأسها إلى الشرق يعيثون فى البلاد الأوربية فساداً ، ويرتكبون نفس الشناعات التى ارتكبها إخوانهم من قبل ؛ ثم وصلوا بقيادة « كودفرى » إلى القسطنطينية ، فبذل الإمبراطور الكسيوس حذقا عظيما فى إقصائهم عن المدينة ، ونقلهم إلى آسيا . وفى شهر مايس سنة ١٠٩٧ زحف سبعمائة ألف مقاتل على سهول نيقية ،

(١) ادوارد غيبون .
(٢) ملز .

وهى قوة كافية لاكتساح أكبر جيش يستطيع السلجوقيون حشده فى الميدان ،
٤٩٥-٥٠٣هـ ولم يلبث هؤلاء المغيرون أن حاصروا مدينة نيقية عاصمة السلطان ، وهددوا بتدميرها ، غير أن الإمبراطور الكسيوس أقنع ملك السلجوقيين أن يسلمه المدينة لكى ينقذها من شرهم ، وعندما شاهد الصليبيون علم « الكسيوس » يخفق على القلعة تملكتهم نوبة عصبية شديدة ، وكادوا يفتكون بأهلها لولا تدخل « الكسيوس » الذى تمكن بدهائه من إنقاذ المدينة وإقناعهم بالعدول عما اعتزموا عليه ؛ فساروا من نيقية صوب أنطاكية يعيثون فى البلاد التى يمرون بها فساداً ونهباً ، ولما انتهوا إليها ضيقوا عليها الحصار حتى أجبروها على التسليم بعد تسعة أشهر ذاقوا فى خلالها ويلات الجوع ، والتجأوا حتى إلى أكل اللحوم البشرية ، ويقول المستر ميلز : « إن جنود الصليب كانوا ينبشون القبور ، ويأكلون اللحوم البشرية سراً »[1].

حصار أنطاكية
تشرين الأول
١٠٩٧ —
حزيران ١٠٩٨

وعلاوة على هذه الفظائع المروعة كان الصليبيون يجدون لذة — لاتعدلها غير لذة الجرائم الأخرى — فى تشويه جثث الموتى ، إذ حينما فتحوا أنطاكية ذبحوا ألفين من الأتراك وعرضوا بعضها كأنصاب لذكرى انتصارهم المشؤوم ، كما طعنوا آخرين بالرماح حول معسكرهم . ويروى لنا الرواة أن الصليبيين نبشوا فى حادثة أخرى قبور المسلمين ، وقطعوا رؤوس الجثث ، وعرضوا منها ألفا وخمسمائة بمرأى من السكان المروعين . ويقول المسيو ميشو[2] : « إن الصليبيين ألقوا القبض على ابن أمير من أمراء الجيش السلجوقى فى أنطاكية ، وحاولوا إرغام أسرته على تسليم المدينة فداء ابنهم من الأسر ، ولما أبوا تلبية طلبهم ساموا الشاب صنوف العذاب ثلاثين يوما ، ثم حملوه أخيراً إلى أسوار المدينة حيث ذبحوه بمرأى ومسمع من والديه الولهانين وسكان المدينة المروعين » .

(١) يقول فون سيبل وملز وكتاب آخرون إن الصليبيين وبالأخص الخدم كانوا يأكلون اللحوم البشرية علناً .

(٢) الجزء الأول ص ٤٦٢ .

١٠٦٣ — ١١١٠ م

بدهى أن الحرب غالباً ما يصحبها الانتهاس فى الملذات البهيمية ، ولكن الغزاة الصليبيين ألقوا حبل شهواتهم على غاربها من غير وازع أو رادع . ويقول أحد المؤرخين المشهورين : « قل أن نجد فى تاريخ الحروب مثل هذه الدعارات التى ارتكبت فى حملات الصليبيين ، ويقول أيضاً : « إذا بحثنا فى تفاصيل تلك الوقائع رأينا أن رذائل بابل وآثامها قد انتشرت بين منقذى جبل صيون » .

فتح أنطاكية

فشل المسلمون فى جميع المحاولات التى بذلوها لإنقاذ أنطاكية ، نظراً لقلة مهارة القائد السلجوقى « كربوغا » الذى أساء معاملة أمراء جيشه فسقطت المدينة ؛ ولربما يعزى سقوطها إلى خيانة أحد حراس الأبراج ، وهو أرمنى اسمه « فيروز » ، ويسميه العرب بهروز ؛ ويقال إنه أدلى الحبال بالليل من على الأسوار فتسلق عليها الصليبيون ، واستولوا على بعض الاستحكامات بعد أن ذبحوا حراسها ، ثم فتحوا أبوابها وتدفقوا وهم يهللون « هكذا أراد الله » (Dieu La Vent) ؛ وشرع هؤلاء المتوحشون اللاتينيون يذبحون السكان دون أن يراعوا حرمة الشيخوخة وضعف النساء وعجز الأطفال ، فانتهكوا حرمة المنازل ، وكان منظر الجوامع يزيدهم وحشية على وحشيتهم ، فقوضوا القصور المنيفة ، والأكواخ الحقيرة ، وتركوها ركاما يبابا ، كما سالت الدماء البشرية فى الميادين والطرق على السواء ، ويقدر المؤرخون عدد الذين قتلوا فى تلك المذبحة زهاء عشرة آلاف .

حزيران ١٠٩٨

مذبحة معرة النعمان

و بعد أن انتهى الصليبيون من هذه المذبحة الفظيعة شرعوا يرتكبون أحط ضروب الرذائل ، ثم زحفوا على معرة النعمان[1] إحدى مدن الشام الزاهرة ، فاستولوا عليها عنوة وذبحوا ١٠٠ ألف من سكانها ، فسالت الدماء فى الشوارع كالأنهر ، ثم استعرض بوهيموند أسراه . ويقول ميلز : « إنه استبقى الجميلات والشبان الأقوياء لكيما يبيعهم فى أسواق الرقيق ، وأمر بذبح الشيوخ والأطفال على مذبح القسوة والنذالة »[2] . وفى معرة النعمان أقدم الصليبيون على أكل

١٠٠٣ـ١٠٠٤ م

(١) مسقط رأس الفيلسوف العربى المشهور أبى العلاء المعرى .

(٢) ج ٥ ص ١٧٩ .

اللحوم البشرية ، حتى يقال إنها كانت تباع علناً فى معسكر المسيحيين الذين زحفوا على القدس وفتحوها عنوة ؛ وقد ذكر ميشو تفصيل تلك المذبحة بقوله : « كان المسلمون يذبحون ذبح الأنعام فى الشوارع والمنازل ، ولم يجد أهل المدينة محلا أميناً يعتصمون به ، فألقى بعضهم نفسه من فوق الأسوار ، وازدحم البعض الآخر فى القصور والحصون والمساجد ، ولكنهم لم يستطيعوا برغم ذلك إخفاء أنفسهم من متصيديهم ، فحاصر الصليبيون جامع عمر — الذى اعتصم فيه المسلمون — وجددوا تلك المناظر الوحشية التى تعد وصمة فى جبين فرسان التيتون إذ هجم الجنود على الهاربين وأعملوا السيف فى رقابهم من غير ماشفقة ولا رحمة ، ولم يكن يسمع فى تلك الساعة الرهيبة غير أنين الجرحى وحشرجة الموتى ؛ كذلك وطئوا بخيولهم الجثث المكدسة فى أثناء مطاردة الهاربين . ويقول « ريموند دى اكيلس Raymond D' Agiles » الذى شهد تلك الموقعة : كانت الدماء قد وصلت فى رواق المسجد إلى الركب[1] .

الاستيلاء على القدس مذبحة الصليبيين ٢٣ شعبان ٤٩٢هـ ١٥ تموز ١٠٩٩م

١٠٦٣ — ١١١٠م

ولم يكف الصليبيون عن السفك إلا عند ماتقدموا إلى الله بالابتهال والشكر على نجاحهم ، ولكنهم ما كادوا ينتهون من صلاتهم حتى واصلوا الفتك والقتل مرة أخرى ، « وذبحوا فى هذه المرة جميع من أبقوا على حياتهم رجاء أن ينالوا منهم الفدية ، وقد اضطر بعض السكان إلى إلقاء نفسه من أعلى الحصون والمنازل كما أحرق الصليبيون البعض حيا ، ثم جاءوا بالذين كانوا قد لاذوا بالفرار ووضعوهم على جثث الموتى المكدسة ، وأخذوا يمثلون بهم أشنع تمثيل ، ولم تكن تجدى فى ذلك الموقف الدامى دموع النساء ولا صراخ الأطفال ، ولا منظر البلد

---

(١) كتب الصليبيون إلى البابا يهنئونه بفتح بيت المقدس بقولهم : « إذا أردت أن تعلم بما جرى لأعدائنا فثق أنه فى إيوان سليمان ومعبده كانت خيلنا تخوض فى بحر من دماء المشركين إلى ركبتيها » . (المعرب)

الذى صفح فيه السيد المسيح عن جلاديه ، فكل هذه المناظر المثيرة للرحمة والعطف لم تكن لتلين قلوبهم القاسية ! »[١]

ويقول مؤرخ آخر : « كان الصليبيون قد صمموا فيما بينهم على ألا يظهروا عطفا أو رحمة نحو المسلمين ، ولهذا كانوا يسوقونهم إلى الميادين العامة وينكلون بهم شر تنكيل دون أن يبقوا على أحد ؛ فكانوا يذبحون النساء والأطفال والبنات والأولاد على حد سواء ، حتى أصبحت ميادين القدس وشوارعها ملأى بالجثث وأشلاء الأطفال من غير ما شفقة ولا رحمة[٢] » ، وعلى هذا النحو هلك فى تلك المدينة وحدها زهاء سبعين ألفا .

معاملة اليهود

ولأجل أن يشبع الصليبيون شهواتهم أبقوا على حياة اليهود إلى وقت آخر حتى يعدوا لهم مصيراً أكثر هولا وأشد رعباً ، فساقوهم جماعات ووحدانا إلى كنائسهم وأشعلوا فيهم النار . ويقول المسيو ميشو : « لقد وصف المؤرخون المسيحيون المعاصرون تلك المناظر المرعبة برباطة جأش وثبات جنان نادرى المثال ، حتى إنهم فى أشد الوقائع هولا لم يسمحوا للشعور أو الوجدان بالتغلب على الحقد الدفين الذى يستعر فى قلوبهم ، ولم تظهر منهم أية عاطفة إنسانية نحو هؤلاء المنكودى الحظ » .

كودفرى ديبولون

وبعد أن فتح الصليبيون بيت المقدس انتخبوا كودفرى ملكا عليها ، ولكن أخاه بلدوين خلفه بعد سنة ، وشرع يحاصر « قيصرية » التى سلمت بعد مقاومة شديدة بشروط مرضية ففتحت أبوابها للمحاصرين ، غير أن الفرنج عندما دخلوا المدينة لم يراعوا حرمة العهود وذبحوا السكان الآمنين من غير ما شفقة ولا رحمة ؛ وقد لاقت طرابلس مصير وصيدا نفس المصير ، وكانت المدن الواقعة على ساحل البحر فى تلك الأثناء قد بلغت حد العظمة والازدهار . ويصف « خسرو »

١٠٩٩-١٠٠٣م

(١) المسيو ميشو (ج ١ ص ٢٣٩) .

(٢) ميلز ج ١ ص ٢٧٨ . ويضيف المسيو ميشو إلى ذلك قوله : « إن تلك المذابح استمرت أسبوعا وأن من بقى حيا عومل معاملة الأرقاء » .

بلدة طرابلس : « بأنها مدينة امتلأت ضواحيها وأعمالها بسنابل الحنطة المتماوجة ، والكروم الباسمة ، ومزارع السكر اليانعة ، والحدائق الوارفة ذات الأشجار المثقلة بالبرتقال والليمون وشتى الفواكه » ، وكانت المدينة فى حد ذاتها بالغة حد البهاء آهلة بالسكان ومزدحمة بالمنازل الفخمة ، والحوانيت التى كانت تبدو كأنها القصور الشامخة ، والأسواق الزاخرة بشتى السلع ؛ وكان يتوسط الميادين العامة والشوارع الفسيحة نوافير جميلة تنبثق منها المياه المتساقط كاللجين ؛ أما جوامعها فكانت آية فى الروعة والإبداع الهندسى ، كذلك كان فى المدينة مكتبة زاخرة بالكتب العلمية والأدبية ، وكلية فخمة ، ومعمل للورق يضاهى معامل سمرقند . وفى سنة (١٠١٩ م) حاصرها الصليبيون بقيادة « تانكريد » يساعده أسطول بيزا من جهة البحر ، فدافع المحصورون دفاع الأبطال ، وقاوموا الأعداء مدى حين ،

نهب طرابلس

الباب الواقع على طريق شيراز

ولـكن المحاصرين انقضوا عليهم أخيراً ، وأعملوا السيف فى رقابهم ، وأحرقوا المـكتبة العامة والـكلية والمصنع .

وعلى هذا النحو انتقلت فلسطين وجزء من الشام إلى أيدى الفرنج الذين أسسوا فيها النظام الإقطاعى الذى كان شائعاً فى أوروبا وقتئذ ؛ فانحط المسلمون إلى دركات الرق والعبودية ، وحلت المحاكم الاستبدادية محل المحاكم القضائية ، وعرض رجالها ونساؤها مقيدين فى الأصفاد فى الشوارع والأسواق كما كان متبعاً فى أوروبا . وقد زار الأمير أسامة بيت المقدس بعد تلك الموقعة ببضع سنوات ، وافتدى بعض هؤلاء المساكين ، ويظهر من وصف أحد المؤرخين المسيحيين أن الصليبيين البرابرة كانوا قد حرموا عاطفة الشفقة والحنان .

١٠٦٣ — ١١١٠ م